مشاهد من تمثلات الخرافة بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط
عوالق الوثنية القديمة أنموذجاً

Scenes from representations of myth in the Middle East in the Middle Ages Ancient pagan plankton as a model

أسماء حاج محمد[1]
البليدة 02- علي لونيسي-
ea.haddj-mohammed@univ-blida2.dz

تاريخ الوصول 2020/10/30 القبول 2022/01/20 النشر على الخط 2022/04/15
Received 30/10/2020 Accepted 20/01/2022 Published online 15/04/2022

ملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية مدى مساهمة الموروث الديني الوثني القديم في انتشار الخرافات بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط، هذه الأخيرة التي استندت في مادتها على إحياء بعض رموز الديانة الوثنية القديمة كعناصر الطبيعة وتقديس البشر وطقوس السحر، دون أن تقدم أي مبرر منطقي لهذا الفعل، بل آثرت تجاوز الدين الإسلامي وتغييب العقل، وتفعيل السذاجة، لتعكس بذلك طبيعة البيئة التي دعمت ترسيخ الخرافة في الذهنية الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الخرافة – الديانة الوثنية –المغرب الأوسط – الذهنية الاجتماعية.

Abstract:

This research paper treat how much the ancient pagan religions hertage contributed to spread of superstitions in the middle Maghreb(un the middle age, This last one wich was based in its matter on the revival of some old pagan symbols as elements of nature, sanctification of humains ans ritual magic, Without providing any logical justification for this actions. Rather it opted to surpassed the doctrine of islamic religion, and the absence of mind and activation of naivety, Which was reflected the nature of environ ment that was supporting its consolidation in the social minds.
Key words: superstition- pagan religion- middle maghreb- the social minds.

[1]– المؤلّف المراسل: أسماء حاج محمد البريد الإلكتروني: **ea.haddj-mohammed@univ-blida2.dz**

1.مقدمة:

يكتسي البحث في حقل الذهنيات أهمية بالغة في الدّراسات التاريخية، نتيجة مساهمته الفعّالة في ملامسة تصورات المجتمعات اتجاه الظواهر الاجتماعية والإنسانية والطبيعية، وهو ما ينطبق على مجتمع بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط وخرافاته التي فرضت نفسها فرضاً لعدّة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية، مستمدة بقاءها من الأصول التي نشأت وتطورت على أسُسها، وهذا ما كشفت عنه البحوث الاجتماعية التي نالت فيها الخرافة حظّها الوافر من التقصي، في حين بدأت تشق طريقها نحو الظهور بفضل اجتهاد ثُلة من المؤرخين الذّين رصدوا طبيعة الذهنيات السائدة في كامل الرسم المغربي دون تمييز، واكتفوا بالإشارة إلى مجتمع المغرب الأوسط بشكل مقتضب ضمن جزئيات بسيطة تطلبتها الضرورة البحثية، فبالرغم من جديتها إلاّ أنّها لم تعكس مدلول المعتقدات والممارسات الخرافية السائدة في مجتمعه آنذاك.

وعليه لابد من الإقرار أنّ الخرافات الشائعة التي أخذت تتكون من جديد تحت غطاء الدين القديم لا يمكننا اختزالها من المخزون الثّقافي العام لمجتمع المغرب الأوسط، بل ينبغي إعطاء تفاصيل عنها، وإعادة طرح استفهامات عن أسباب استمرارها في الذهنيات بالرغم من انتشار الإسلام على الرغم من إقبال السّاكنة على استيعاب تعاليمه الدّاعية إلى استخدام العقل والابتعاد عن كل ما هو غيبي.

إنّ الخرافات التي دارت مادتها حول بعض المعبودات القديمة هي في كل الأحوال تجذر للوثنية القديمة ف بيئة اجتماعية مسلمة، فإذا كانت الرّوايات التاريخية التي ظهرت في المصادر المهتمة بترصد خرافات المغرب الأوسط لم تلق الاهتمام اللازم من طرف الباحثين، كان لابد من إعادة قراءتها وتحليل محتواها بما يتناسب وأهداف دراستنا التي اقتضت طرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى ساهم الموروث المحلي الوثني في ترسيخ التفكير الخرافي في العقل الجمعي بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط؟

وقد وافقها مجموعة من التساؤلات أبرزها:

-ما هو الضبط الدّلالي لمصطلح الخرافة؟

- ماهي أهم المعبودات الوثنية التي استمر تمظهره بالمغرب الأوسط بعد الإسلام؟

- هل استمرت عوالق الوثنية في شكل طقوس فقط أم ترسخت بترسخ المعتقد القديم؟

ولكن قبل التطرق إلى لبِّ الموضوع لابد من التعرف أبرز أهدافه والمتمثلة في الوقوف على معلومات تاريخية تترجم لنا مستوى التفكير الإنساني السائد آنذاك.

أمّا عن المنهج الدراسة فحاولنا بناءها فكرياً باعتمادنا على المنهج التاريخي الذّي يهدف إلى تدوين المعلومة التاريخية بطريقة تحليلية ناقدة، وعليه سنتناول النقاط التالية:

- تحديد مفهوم الخرافة من خلال رصد مدلولاتها المختلفة نتيجة تنوع مجالات التفكير الإنساني
- كشف العلاقة الكامنة بين الخرافة والدين، هل هي علاقة تجاوز أم تصادم
- رصد ترسبات الوثنية القديمة في المغرب الأوسط، ومظاهر استمرارها، ودورها في تفعيل الخرافة

2. الخرافة (المصطلح والدّلالة):

2.1 التعريف اللغوي:

اشتقت لفظة خرافة من الفعل الثّلاثي "خَرِفَ" على وزن "فَعِلَ"، حاضره يُخَّرفُ وفاعله مُخّرف، والمصدر فيها الخَرَفُ أو التَّخْريف ويراد به فساد العقل نتيجة الكِبَر[1]، وقالت العرب: خَرِفْ الشيخ خرفًا أي أَخْرفه الهَرَم فهو مخرفٌ[2].

أمّا الخرافة فهي الحديث المستملح المكذوب، وتلفظ براء مخففة ولا تدخل الألف واللّام للتعريف بها[3] والمتحدث بالخرافات يسمى مخرفٌ[4]،وقيل أنّ "خُرافَة" اسم لرجل من بنى عُذرة[5]أو جُهينة[6]اِختطفه الجّن فمكث فيهم مدّة طويلة ثم ردّوه إلى الإنس، ولّما رجع صارا يحدث قومه بما رأى، فوصفت أحاديثه بالعجيبة أو الغريبة التي لا تُصَدق، وقال في أحاديثه المكذوبة أحاديث خرافة[7]، ومن هنا ارتبطت كلمة خرافة بمجالس الحديث كنوع من أنواع الاستمتاع[8]، فهي وبكل تأكيد مجرد أفكار ركبّها خيال الإنسان وارتبطت في جانبها اللغوي بشكل مباشر بالقصص التي تروي في مجالس الحديث بغرض التسلية، ويقدم مادتها القائمة على أخبار الجّن والخوارق أشخاص متخصصون يعتقدون ويؤمنون بصحتها.

2.2 التعريف الاصطلاحي:

إذا كانت الخرافة superstition في المعاجم اللغوية قد اتخذت من القصة الخيالية معنى لها فإنّ التعريف الاصطلاحي قد خرج من هذا القالب ومنحها دلالات متنوعة، فعلماء الاجتماع مثلاً أجمعوا على أنّها جملة من الأفعال والألفاظ والأعداد التي تندرج ضمن التراث الشعبي للمجتمعات لجلب السعد أو صرف النحس[9]، بالمقابل اعتبرها الفلاسفة مجرد شعوذة[1] تقوم على ممارسة معتقد ديني ينظر إليه اليوم اليوم على أنّه قلة عقل.[2]

---

[1]- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم أبي الفضل الإفريقي المصري(ت711هـ/1311م): لسان العرب، ط1، دار الصادر، بيروت، ج9، ص 62.

[2]- الفراهيدي أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت175هـ/791م): كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج4، ص 251،252.

[3]- الجوهري اسماعيل بن حماد(ت391هـ/1002م): الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور العطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ج4، ص1349.

[4]- الفيروز آبادي مجد الدين بن يعقوب(817هـ/1414م): القاموس المحيط، تح: نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص 804.

[5]- احدى القبائل عرب الشمال تنسب إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد احدى بطون قضاعة بن معد بن عدنان، اشتهروا بتغلب العشق والهوى على حياتهم، تتوزع مضاربهم بين الحجاز وبلاد الشام. القلقشندي أبي العباس أحمد بن علي(ت821هـ/1355م): قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: ابراهيم الابياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1982، ص49.

[6]- قبيلة عربية من قبائل قضاعة ينتسبون إلى زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، تتوزع مضاربهم في شمال الحجاز. القلقشندي، نفس المصدر، ص42،43.

[7]- في الحديث المروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها ما يدل على ذلك، وهو الحديث الوحيد الذي ذُكِرت فيه لفظة خرافة، إذ قالت حدّث ذات ليلة النبي صلى الله عليه وسلم نساءه حديثا فردت إحدى نساءه قائلة: كأنّ الحديث حديث خرافة، فقال: ((أتدرون ما خرافة؟ إنّ خرافة كان رجلا من عُذرة أسرته الجّن في الجاهلية، فمكث فيهم دهرا ثم رَدُّوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال النّاس: حديث خرافة)). الترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى(ت679هـ/1280م): الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تح: سيد بن عباس الجليمي، المكتبة التجارية، د ر ط، مكة المكرمة، 1993، ص 208 .

[8]- ابن منظور، المصدر السابق، ج9، ص65.

[9]- أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (انجليزي – فرنسي– عربي) : ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، ص415.

لكن تَبَنِي المقصد العام لهذا التعريف قد يوقع البعض في إشكال التشكيك في العقيدة الإسلامية، خاصة إذا تعلق بالممارسات الغيبية، لأنّ المعلوم أنّ الله تعالى لم ينزّل ما يتنافى مع طبائع العمران، إلاّ أنّه نزّل أمورًا لا يمكن للعقل البشري أن يدركها، وفي ذات الوقت لا يمكنه أن ينفيها[3]، فمن غير المعقول إذن أن نربط كل الممارسات الدينية الإسلامية بالتفكير الخرافي، بل وجب التوضيح أننا لا نهدف إلى طرح أي نوع من أنواع التشكيك في العقيدة الإسلامية، والدّليل هو إدراجنا لحادثة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين أّهم بتقبيل الحجر الأسود الذي يعتبر أحد شعائر الحج قال:" **إنّي أعلم أنك حجر لا تضّر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت النبّي صلى الله عليه و سلم يقبّلك ما قبّلتك**"، وفي هذا رّد على الجهالة التي كانت قبل الإسلام المعتقدة أن الحجر هو يد الله في الأرض يصافح بها عباده، ومن يقبله فقد نال بركة عظيمة[4].

ممّا سبق يمكننا القول أنّ الخرافة هي فكرة قائمة على التصور الخيالي في تفسير الظواهر وموجهة المواقف يلجأ إليها الفرد لتحقيق الإشباع النفسي القائم على الأمان والاطمئنان[5] فأخذت بذلك صورتين في شكل تصور وممارسة تتعارض والواقع الموضوعي، يشترك في الاعتقاد بها عدد من أفراد المجتمع لهم ثقافة فرعية مشتركة في نطاق المجتمع العام، وتتنوع عناصرها بتنوع الظواهر والمواقف التي تواجه الإنسان عبر الأزمنة، تم تداولها لأنّها وجدت تفسيرات ساذجة ساهمت في تحقيق الإشباع النفسي القائم على تحقيق الأمان والاطمئنان.

3. ملاحظات حول تسرب الخرافة إلى كتب التفسير والحديث الديني في العصر الوسيط:

يقف المتتبع لأنماط السلوك الإنساني عبر التاريخ على العديد من الأفكار والأفعال الغريبة عن الواقع الموضوعي، والنّاجمة عن تفاعل الإنسان مع المجال الذّي يعيش فيه، أين أُثيرت أفكاره ومخاوفه وخياله، فوصل إلى تفسيرات تتلاءم مع بدائيته وفي وكنف هذه الأخيرة ولدت الخرافات لتُمثل تأملات الشعوب الحسّية وخبراتهم[6] ويتوافق وجودها مع وجود الإنسان على هذه الأرض، وتنامت أكثر مع نموه عقله، فحملت بذلك أخبارا عن تجاربه الروحية والنفسية في ظل غياب التفسير العلمي لكل ما واجهه من مواقف وأخطار في حياته[7].

ويبدو أنّ الأمر الذّي دعا النّاس للتمسّك بالخرافة عبر الأجيال إمّا مشافهةً أو كتابة بالرغم من تعرّضها للتحريف بسبب خيال المتلقي ومزاجه[8] هو ارتباطها بالدّين أو الاحتكاك به وملازمته- خرافة تحت غطاء ديني- على اعتبار أنّ وظيفة كل منهما قائمة على تفسير الظواهر المختلفة في الوقت الذي لم يكن فيه الإنسان قد بلغ من المعرفة العلمية ما يساعده على ذلك، الأمر الذّي أكسبها قوة التصديق عند الجماهير الجاهلة[9].

---

[1]- الشعوذة: هي حيل وخُدع أو تضليل، وهي أقرب لكونها حركات خفة تعتمد على المهارة والسرعة والتمويه في عمل الأشياء هدفها خداع بصر الرائي وجعله يرى أشياء غير موجودة. محمد زهير الحريري: السحر بين الحقيقة والخيال، ط1، دار الإيمان، دمشق، 1985، ص 120- 122.

[2]- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تع، خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ج1، ص1387.

[3]- خالد الكبير علال: أخطاء ابن خلدون في كتابه المقدمة، دار الإمام مالك، البليدة الجزائر، 2005، ص10،11.

[4]- ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني(ت852هـ/1448م): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تح: عبد العزيز ابن باز، المكتبة السلفية، السعودية، د ت ن، ص 364.

[5]- عبد الرحمن عيسوي: سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي، ط1، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص17.

[6]- سلام ناصر والي ناهض العظيمي: "الأساطير والخرافات في كتابات الرحالة العرب المسلمين والمشارقة (132-656هـ/750-1258م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، تخصص التاريخ الإسلامي، جامعة واسط، العراق، 2017م، ص195.

[7]- ابراهيم بدران وسلوى الخماش: الخرافة دراسات في العقلية العربية، ط3، دار الحقيقة، بيروت، 1988، ص15،16.

[8]- العظيمي، المرجع السابق، ص 57

[9]- قسم البحوث والدراسات: الأسطورة توثيق حضاري، جمعية التجديد الثقافية، دار كيوان، دمشق، سورية، 2009، ص42.

ومع تقدم العصر وتطور البيئة أصبحت الخرافة في العصور الإسلامية صناعة لها أهلها المتخصصون في العرافة والكهانة والتنجيم، يملكون الدِّراية بالقوى المؤثرة في النجوم والكواكب فيدركون من خلالها أنباء المستقبل، مستغلين فضول الناس ورغبتهم في معرفة ما ينتظرهم في أيامهم، وهو ما أشار ابن خلدون (ت808هـ/ 1406م)، إلى ذلك بقوله: **"وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه، وذلك هو عين السعادة"**[1].

لكن تجدر الإشارة أنّ تجذّر الخرافة في الذهنية الاجتماعية سببه أيضاً تسربها إلى مصادر التراث الإسلامي المنطلق المعرفي الذي يبنى مدركات المسلمين خاصة كتب التفسير القرآنية، وفي هذا السياق تم اختيار نماذج تؤكد ذلك، والأسوأ هو تداولها من طرف مجموعة من المؤرخين في مؤلفاتهم دون تمحيص أو تحقيق وعلى سبيل تقديم النموذج لا الحصر نذكر موضوع نشأة الكون وبداية الخليقة من المواضيع الدينية التي تابعها المفسرون أمثال الطبري(ت310هـ/ 922م) حين فسّر قوله تعالى: **[ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ]**[2] واعتبر النون الوارد ذكرها في هذه الآية تمثل الحوت الذّي كان في الماء، فلّما تحرّك واضطرب تزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرّت[3] ليضيف بأنّها الحوت الذّي دحيت عليه الأرضون، وفي هذه الحال يمكننا الجزم بتأثير الروايات الإسرائيلية في تفكير الطبري ومثله القرطبي (ت 671هـ/1272م) في كتابه **الجامع لأحكام القرآن** الذّي أفاد فيه بأنّ النّون هي الحوت الذّي تحت الأرض السابعة أو الذّي عليه الأرضون[4].

ولم يسلم السيوطي في القرن العاشر من هذه الخرافة بالرغم من تقدم السنون، حيث أورد في الدرّ المنثور بأنّ الله خلق الحوت بعد القلم وهو النّون الوارد ذكرها في أوّل السورة، وقد كبس الله عليها الأرض[5]، وفي هذا الصدد يقول المفسر **الآلوسي (ت127هـ/ 744م)** مفنداً :**"وأنا لا أراها شيئا، وأظنّك لن تجد لها سندا يعوّل عليه، ولو ابتغيت نفقا في الأرض أو سلما في السّماء"**[6]، ومثله ابن كثير(ت774هـ/1372م) الذّي ينسب جل الخرافات الوارد ذكرها في كتب التفاسير إلى الإسرائيليين بقوله: "هذا من خرافات الإسرائيليين وزندقتهم التي أرادوا من خلالها اختبار عقول الجهلة من الناس"[7].

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ/1406م): **"العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"** ، تحقيق: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر ، بيروت، لبنان، 2001م، ج1، ص 653.

[2]- سورة القلم: الآية [1و2].

[3]- ابن كثير عماد الدين أبي الفداء الدمشقي(ت774هـ/1372م): تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، بيروت، 1999م، ج1، ص 214.

[4]- القرطبي محمد ابن أحمد بن أبي بكر الخزرجي(ت671هـ/1272م): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م، ج18، ص 223.

[5]- السيوطي عبد الرحمن ابن أبي بكر (ت911هـ/ 1505م): الدّر المنثور، دار الفكر، بيروت، ج8، ص 242.

[6]- الآلوسي أبي الفضل شهاب الدين بن محمود البغدادي(ت127هـ/744م): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ص84،85.

[7]- ابن كثير، المصدر السابق، ج 18، ص344.

4. نماذج من مؤثرات الوثنية[1] القديمة وعلاقتها بتفعيل الذهنية الخرافية في المغرب الأوسط:

تتبني الكثير من الدراسات التاريخية المهتمة بالتاريخ الفكري لمجتمع المغرب الأوسط أنّ عناصره بعد الفتح تأثروا بمبادئ العقيدة الإسلامية وأفكارها الداعية لاستخدام العقل، لاسيما أنّهم أصبحوا أكثر استجابة لنبذ كل خارق يصادفهم، لكن تأثرهم هذا لم يمنعهم من حفظ بقايا وثنيتهم القديمة المتناقضة مع تعاليم الدين الجديد ويظهر ذلك في استمرار تمظهر مقدساتهم القديمة في حياتهم اليومية، وهو ما يفسّره أحد الباحثين بأنّها مجرد قناعات مغلوطة لكنّها راسخة لا ترقى أبداً لمستوى المعتقد الديني الذّي يهدد بقاء الإسلام في البلاد[2]، ومن بين تلك القناعات أو التصورات المغلوطة نذكر:

4. 1 الاعتقاد في عناصر الطبيعة بمختلف أنواعها:

كان لبيئة بلاد المغرب في العصر القديم المتنوعة في تضاريسها ومناخها دور في بناء معتقدات سكانه القائمة على صلتهم بالعناصر الطبيعية مثل السماء والقمر والماء والجبال والكهوف لكن بدرجات متفاوتة من حيث التقديس[3]، يقول حسن الوزان في هذا الصدد:" الصدد:" **إنّ سكان نوميديا كانوا يعبدون الكواكب ويقدمون لها القرابين وبقوا على وثنيتهم بعد مرور نحو مائتين سنة على وفاة محمد صلى الله عليه وسلم أصبحوا مسلمين إلاّ القليل منهم**"[4].

والواضح أنّ هذه مؤثرات الديانة الوثنية القديمة لم تندثر كلّياً في المغرب الأوسط بالرغم من انتشار الإسلام إنّما استمرت في شكل آخر مرتبط بظاهرة التبرك ،[5] وهنا تبرز **قرية الملشون** في مدينة بسكرة التي اعتقد سكانها ببركة **كهف زيغري** مقر الرّجل المقتول الذّي مازال يتقاطر دماً رغم تقادم الدهر كدليل تاريخي[6] يلخصه **ستيفان غزال** بقوله " أن المسحية لم تترك أي أثر لها، أمّا الإسلام فكان مخيرا أن أن يقضي على هذه الطقوس أو يبقى أجنبيا عنها"[7] وهو أمر لا يثير فينا الدهشة بما أنّ الكتابات التاريخية والجغرافية والأدبية مليئة برواسب الوثنية، حيث القصة الطريفة التي يسرد لنا الجغرافي أبو عبيد الله البكري (ت487هـ/ 1094م) قصة طريفة عن **عين الأوقاف** المشهورة

---

[1]- لغةً: اشتقت من فعل الثلاثي وثن، ومصدرها الوثن، وهو كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل فتنصب وتعبد، أمّا اصطلاحاً: فهي ظاهرة حسيّة اخترعها خيال الإنسان نتيجة اقتناعه بوجود قوى خفية تتحكم في حياته، وتندرج ضمن الديانات الوضعية أي الغير موحى بها من عند الله، وهي تشمل معبودات من العالم المرئي المحسوس من نبات أو حيوان أو كواكب، إضافة إلى عناصر الظواهر الطبيعة المختلفة، وهذا ما كان عليه حال البربر قبل الإسلام مشتتي الأهواء ومختلفي العقائد وظلّوا على وثنيتهم مدة طويلة. ابن منظور، المصدر السابق، ج 15، ص153. عبد الرحمن خلفة: "الديانة الوثنية المغاربية القديمة منذ النشأة إلى سقوط قرطاجة 146ق م"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008، ص 29.

[2]- روبرت إيه سيجال: الخرافة، ترجمة: محمد سعد الطنطاوي، مؤسسة الهنداوي، مصر، 2014م، ص 16.

[3]- حسن الوزان ابن محمد الفاسي المعروف بالإفريقي (ت 944هـ/ 1537م): وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج1، ص 67. يشير هيرودوت في كتابه إلى أنّ جميع اللبيين كانوا يعبدون الشمس والقمر وحدهما ويقدموا لهما القرابين. هيرودوت: أحاديث هيرودوت عن اللبيين، تر: مصطفى أعشي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009، ص 30.

[4]-. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 67.

[5]- مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب، 2005، ص196.

[6]- مجهول: الاستبصار، ص 173، البكري، المصدر السابق، ص 53.

[7]- تاريخ شمال إفريقيا القديم: تر محمد التازي سعود، مطبوعات أكادمية للمملكة المغربية، الرباط،2007م، ج6، ص111

بأرض كتامة المنبعثة من حائط جبل في مدينة إيكجان[1] وماؤها الذّي يتدفق في أوقات الصّلوات المعلومة خمس مرات في اليوم نهارا وليلا وينقطع دون ذلك[2]، وكأنّ هذه الخرافة تؤكد على المغزى الديني المتمثل في حثّ النَاس أهمية الالتزام بالصلاة واحترام أوقاتها.

وبما أنّ الخوف من المرض إحساس لا يتحكم فيه أحد نجد أنّ نساء تلمسان اعتقدنّ في فعالية النهر الجاري في علاج الأمراض، يذكر دوتي أنّ بعض نساء تلمسان كُنّ يجمعن أظافر مريض قرحة المعدة مع قليل من خصلات شعره ويضعنها في خرقة ثم يثبتنها في مجرى النهر اعتقادًا أنّ الماء الجاري يطهر جسم المريض[3]، وهو تصورٌ خرافي مرّ عليه البكري بسرعة عند حديثه عن مدينة ميلة وسُكانها الذّين يقصدون عين مشهورة بها للشفاء من الحُمّى أطلقوا عليها اسم " **عين الحُمى**" يُرّش منها على المحموم فيبرأ لبركتها[4].

أفادنا الأثريون أيضاً في هذا العنصر حين عثروا في قلعة مسعد بولاية الجلفة على دمية تُشخص طقس "**بوغنجة**"[5]وهي المرأة المرتبطة بخرافة استدرار المطر[6]حين تظهر علامات الجفاف[7]، يتم في شهر يناير حسب التقويم الشهري اليولياني ويمثل بداية السنة الشمسية الجديدة، الجديدة، ويعتبر رمزا لترسبات الوثنية في المنطقة القائمة على تقديس الماء، وهذا ما يؤكده الونشريسي (ت914هـ/ 1508م) في نوازله حين سألوه عن رأي الدين في استعداد المسلمين للاحتفال به، مبيناً استنكار الفقهاء إحياء العادات القديمة[8]، خاصة أنّ سكان المغرب الأوسط قد جعلوه عيداً اجتماعياً رسمياً، وشاعت في أيامه الكثير من الخرافات كأن تُحضَّرَ فيه أطعمة مخصوصة دون غيرها كالحليب والنبات الأخضر متفائلين ببياض السّنة و خصوبتها، يقول ابن الحاج :" **فأوّل ما أحدثوه في ذلك أنهم اتخذوا طعاماً يختص بذلك اليوم... فمن لم يفعله منهم كان ذلك سبباً في حدوث التشويش**"[9]، كما عمدوا إلى وضع الطفل الصغير في القصعة ،ثم تصب فوق رأسه متخلف أنواع الحلوى ، ثم توزع على الحضور تيمنا بحلول سنة جديدة ملئها الخير و البركة[10].

ونلاحظ أنّ سكان المغرب الأوسط لم يترددوا في استمرار تأدية هذا الطقس القديم خاصة أثناء الجفاف[11]، إضافة إلى تأديتهم لصلاة الاستسقاء وعكوفهم عند قبر الوّلي بالدعاء وإقامة الولائم عند الأضرحة[1]، لذا يمكن القول أنّ المعتقد تقديس المياه قد زال لكن السّكان

---

[1]- إيكجان: جبل بين سطيف وقسنطينة يضم مضارب قبائل كتامة بالمغرب الأوسط. الحميري محمد عبد المنعم (ت900هـ /1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت،1989، ص71.

[2]- أبو عبيد الله البكري (ت 487هـ/1094م): المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، دار الإسلامي، القاهرة، د ت ن، ص55.

[3]- نفس المرجع، ص 58.

[4]- البكري، المصدر السابق، ص 29.

[5]- غنجة: تعني الملعقة الخشبية الكبيرة (الغراف) التي تصلح لاستقاء المطر من البئر، تعود أصول هذه العادة إلى العهد القرطاجي، يعتقد السكان أن غنجة هي عروسة إله المطر" أنزار" لهذا كان الناس زمن الجفاف يلبسون الملعقة ويخرجون مرددين:" غنجة مثل الأمل، يا مولانا اسقنا المطر. دوتي: المرجع السابق، ص .467

[6]- الونشريسي أبو العباس أحمد يحي (ت 914هـ / 1508م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، 1981م، ج11، ص ص150،151.

[7]- إدموند دوتي: السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة: فريد زاهي، دار رؤيا، القاهرة، 2018م، ص 388.

[8]- ابن الحاج محمد بن محمد المالكي (ت737هـ/1336م): المدخل، مكتبة دار التراث، دم، د ت، ج2، ص48،49.

[9]- سهيلة دهمش:" العادات الاحتفالية (مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي للمغرب الأوسط الزياني (633-962هـ /1235-1555م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، 2015، ص 63.

[10]- الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 193.

[11]- شهيرة بوخنوف: "أساطير وطقوس الاستسقاء واستقبال الربيع في منطقة خراطة –بجاية "مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2012، ص 132.

حافظوا على طقوس استجداء المطر مما أدى إلى استمرار هذه الخرافة، وبصفة عامة فإنّ عيد يناير ما هي إلاّ نتيجة اعتقاد السكان أن وقائع السّنة كلها تخضع لتفاعلهم مع طقوس هذا الشهر منذ أول يوم، ويمكن أن نلخص اعتقادهم في طقس يناير في المخطط التالي:

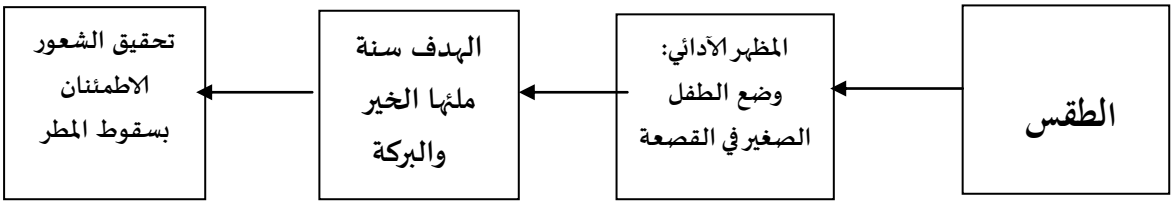

4. 2 تقديس البشر:

اهتم سكان شمال إفريقيا في العصور القديمة بموتاهم وأحاطوهم بهالة من التقديس كشفت عنها النقوش والعمارات الجنائزية[2]، وقد جاء في كتاب أحاديث هيرودوت أن الأمازيغ اعتقدوا في موتاهم الأخيار عقيدة الحلول الإلهي، فطلبوا منهم الحماية عند قبورهم من خلال طقس اللّمس والتوسل[3]، وحاولوا تجسيد عقيدة الرؤيا بحيث ينام الطالب للبركة أو الدعاء فوق القبر فيرى حلما فيه مجموعة من الوصايا يحتكم إليها فتتحقق أحلامه، لكن شريطة أن يصحب طقس التبرك بصلوات معينة يستعد لها بعد التطهر حتى قيل: "**الأضرحة تحفظ الحياة والصّلاة تطرد الشياطين**"[4].

وقد شكّل ذات الاعتقاد حيزاً في ذهنية البربر بعد الإسلام، إذ أنّهم لم يتخلوا عن عاداتهم وممارساتهم السابقة الخاصة بطقس التبرك بالدعاء عند القبر، ويمكن القول أنّ وجه الشبه واضح أي أنّ الأسلاف في القديم يقابلهم

الأولياء في الفترة الوسيطة، لهذا اعتبر البعض أن طبع البربر قائم على الخضوع للعادات القديمة والسلوكيات الموروثة عن الأجداد[5]، وهذا شيء ثابت لا يتغير بالرغم من تغير المعتقد الديني، فمثلاً اعتقد سكان المغرب الأوسط أنّ لكل مدينة أو قرية وليٌ يحميها، يتأملون نيل بركته، ويلمسونها في تصورهم عندما تُقْضى حاجاتهم.

والظاهر أنّ أساليب التقديس كانت على وجهين، حيث اقترنت أولاً بالذِّكر طمعاً في نيل رضاهم وتجنب غضبهم، كقولهم:" **سبحان من أعزّهم وأدناهم وأذّل آخرين وأقصاهم**"، وفي هذا الصدد يقول ابن قنفذ:" **شأن الاولياء أن يمنحهم الله علوم الهامية، يكشف بها**

---

[1]– من بين هذه المقابر نذكر مقبرة بونوارة الميجاليتية أو الدولمن الموجودة في المجال القسنطيني وهي من بين الشواهد المادية التي عاينت لعبادة الأسلاف. محمد الصغير غانم: " المقبرة الميجاليتية بونوارة في الشرق الجزائري"، مجلة العلوم الإنسانية، ع15، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2011م، ص159.

[2]- دوتي، المرجع السابق، ص 444.

[3]– عبد القادر بوعزم:"عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2012.ص194.

[4]– دوتي، المرجع السابق، 443.

[5]– ابن قنفذ أبي العباس أحمد الخطيب القسنطيني(ت810هـ/1408م): أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، د ط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص114. ص 2، 3.

عمّا في القلوب، فحواسهم مخالفة لحواس باقي البشر، ومن هم من يرى الملائكة ومنهم من يرى الجّن، ومنهم من يرى البلاد النائية، ومنهم من يرى ما في السماوات، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ بل ويقرؤون ما فيه"[1].

أمّا ثانياً فقد تمثّل في الفعل والعمل كتمريغ الوجه في التراب والمشي إلي الوّلي حافياً وهذا ما فعله الشيخ حسن أبركان عندما قصد مدينة وهران ليزور الشيخ محمد الهواري[2]،أو اختيار مكان دفن الولي ففي تلمسان فقط بجوار أبوابها ثمانية أضرحة، اعتقاداً في قدرة الولي على حمايتها من هجمات الأعداء، وهذا هو الراسخ في ذهنية السكان وحتى السلاطين، الذّين اعتبروا دفن الولي عند المداخل وسيلة ناجحة لرد كيد الأعداء، حتى أنّ هناك من يقول أن العدو القاصد في هجومه تلمسان لا يسأل عن مدى حصانتها أو قوة جيشها ، بل يتساءل عن الأولياء المدفونين عند أبوابها.، ويذكر في ذات السياق أنّ السلطان الحفصي سأل عن إمكانية دخولها فقال:" **كم من باب للبلد؟ فأجابوا بعددها، فقال: باب الجياد من عليها قالوا: سيدي أبو مدين شعيب، وباب العقبة من عليها؟ قالوا: سيدي أحمد الداودي، قال وباب القرمدين من عليها؟ قالوا: ليس عليها أحد، فأجاب من تلك الباب أدخل"**[3].

وبالتالي لا يمكن إنكار تسلل الخرافة إلى العقل الإسلامي تحت غطاء الدين، فقد ظهر أثرها حين عمد السكان إلى التماس البركة عند القبر، هذا الأخير الذّي شكل أحد أهم مظاهر العمران الصوفي المتصل بطقوس التبرك، خاصة في القرنين 8و9هـ /14-15م بعدما أعاد سلاطين الدولة بني زيّان هيكلتها وخصّوا القبر بمؤسستين دينيتين وهما المسجد والزاوية، مما ساهم في ترسيخ الطقس الخرافي الخاص بالتبرك[4]، وقد جرت العادة أن يدخل زائر الضريح إلى غرفة صغيرة فيها قبر الولي ، فيقوم ويتنفل عنده بركعتين ، ويسلم على الولي الميت دون تقبيل ويقول:" **جزاك الله خيراً عن اجتهادك في نفسك، وفيما تعلق من تلاميذك ورحمك الله ونفعك بعلمك وطاعتك"**[5]، ثم يعمد إلى إشعال الشموع وهي خطوة ضرورية من خطوات الطقس التبرك، إذ تعتبر من الممارسات التي يستفاد بها استحداث الحسي لفكرة النور، فتنكشف لهم الأشياء وتتضح لهم السُّبل وتزول عنهم كل الإحباطات السوداوية كالأمراض وغيرها، ثم تأتي مرحلة التبخير ويقصد بها تطييب المكان قصد طرد الأرواح الشريرة ، وفي الأخير يقوم الزائر بالتمسح على القبر والدعاء عنده ، لكن ما تجدر الإشارة إليه أنّه بالرغم من كل هذه المراحل إلاّ أن المجتمع كان معتقدا أنّ استجابة الولي مرهونة بترك الصدقات للضعفاء والمساكين الملازمين لباب الضريح[6].

---

[1]- الشيخ العالم الولي الصالح الشهير بسيدي الحسن أبركان ابن مخلوف بن مسعود بن سعد الراشدي من مشاهير الأولياء بمدينة تلمسان له الكثير من الكرامات والمكاشفة ينتمي إلى قبيلة مزيلة التي تنحدر من بني راشد، اعتكف للدراسة والتعلم، ثم انتقل الى تلمسان وأخذ الفقه الصوفي على كبار مشايخها منهم ابراهيم المصمودي. ابن صعد محمد الأنصاري التلمساني ت 901هـ/1496م: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تح: يحي بوعزيز، ط1، منشورات أناب، الأبيار، الجزائر، 1994، ص 135

[2]- حسيبة عمروش: "انعكاسات الحروب في السلوك و الذهنيات لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 1440هـ/2018م، ص 216.

[3]- الطاهر بونابي:" الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين 14-15 الميلاديين" ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، 2008-2009م.، ص 601.

[4]- ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 104، 105.

[5]- ابن عون ابن عتو:" الجذور التاريخية لظاهرة التبرك بالأولياء في المجتمع الجزائري، مذكرة مكلمة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2002م، ص 34، 35.

[6]- نفسه، ص 34، 35.

4. 3 الاعتقاد في الطوطم:

يعتبر الباحثون الطوطم الحيوان لا يُؤكل لحمه، ونادراً ما يكون شجرة أو قوة طبيعية له علاقة خصوصية مع كامل العشيرة، وهو الأب الأوّل للعشيرة، ومن ثمّ الرّوح الحامية لها، والمعين الذّي يرسل إليها الوحي، وهذا ما يُخوّله للزعامة على كل أفراد العشيرة، فيخضعون له كالتزام مقدس منهم اتجاهه، له حق الحماية، يُحرّ قتله أو إيذاؤه[1].

وهذا ما اعتقده البربر في العصر القديم، بأنّ هناك نوع من الحيوانات هو جدّهم الأكبر، يحرّم إيذائه أو قتله، وقد كان الكبش من بين تلك الحيوانات المقدسة عندهم، واشتهر باسم الغورزيل[2]، ومازالت آثاره في الجنوب الوهراني على هيئة ضأن فوق قرنيه شمس، وفي معناه التقاء معبودين الشمس والضّأن ويسمى عند المصريين إله آمون[3]، وقد استمرت خرافة تقديسه في الحقبة الإسلامية من طرف سكان ورجلان خاصة فئة العبيد[4]حيث يأتون بالتيس وعليه خرقا ذات لون أبيض وأخضر ولهم أهازيج خاصة[5].

4. 4 طقوس السحر والتنجيم والكهانة:

تميز المغاربة في القديم بميلهم القوي للتدين ووجدوا ما يرضي تدينهم في الطقوس السحرية الدينية التي انطوت عليها الديانات الوثنية الإفريقية التي كانت سائدة في البلاد قبل أن يدخل الفينيقيون و الرومان آلهتهم، و كثير من تلك الطقوس قامت على السحر و الشعوذة التي وصلت إليهم بدون شك من إفريقيا السوداء نتيجة الاتصال الحضاري بين الشمال الإفريقي و جنوبه الموغل في القدم[6]، فسيطرت طقوسه على النشاط الذهني للمغاربة واستعملوه في أمور عديدة أهمها العلاج عن طريق الكهان التي كانت مهمتهم معالجة المرضى بالرقي والعزائم[7] بغية طرد الأرواح الشريرة[8].

وقد استمر العمل بالسحر إلى ما بعد الفتح إلا أنه قبل الإسلام كان يحسب على كامل المجموعة في بلاد المغرب، لكن بعده صارت تمارس أعماله بشكل غير منظم نتيجة تقلص عدد الأماكن التي منحته الشرعية من بينها المعابد، وهذا ما يرجح فرضية بعض المستشرقين مثل إدموند دوتي بأنّ الإسلام لم يتمكن في بلاد المغرب الإسلامي بصفة نهائية[9]،في الوقت الذي اعتبرت النصوص الإسلامية السحرة ومن ومن تبعهم مارقين عن الدين، وتم نعتهم بألقاب مختلفة كالعرافين والمنجمين والمعزمين ، ينشطون في أوساط الاجتماعية مستغلين سذاجة العوام فيخدعونهم، ولا نغالي إن قلنا أنّ سكان المغرب الأوسط اهتموا بكل فروع السحر كالتنجيم[10] الذّي بلغ عندهم مبلغا عظيما إلى حد

---

[1]– سيجموند فريد: الطوطم والطابو، ترجمة: أبو علي ياسين، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1983م، ص 23، 24.

[2]– باصي، المرجع السابق، ص 42.

[3]– بوعصبانة، المرجع السابق، ص 30.

[4]– كانت ورجلان مركزا للعبيد ومنها يمرون إلى المغرب الأوسط. أبو سعيد المغربي (ت 565هـ/1286م): كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 126.

[5]– بوعصبانة، المرجع السابق، ص30.

[6]– موريس لومبار: الإسلام في مجده الأول، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، الإسكندرية1990، ص83.

[7]– خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، دار سينا للنشر، القاهرة، 1990، ص29.

[8]– أسامة عدنان يحي:" علاقة السحر بالطب في الحضارات القديمة" مجلة كان التاريخية، ع12، العراق، 2011، ص90.

[9]– دوتي، المرجع السابق، ص 249 وما بعدها

[10]– هو علم تخميني ، الغرض فيه الاستدلال من أشكال الكواكب و قياس بعضها إلى بعض وقياس ذلك كله على الأرض في جملة ما يكون من الأحوال في الممالك والبلدان والمواليد وغيرها .ابن سينا أبي علي الحسين بن عبد الله (ت427هـ/1037م): تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات،ط2، دار العرب للبستاني، القاهرة، د ت، ص110.

تضلع حكام الدولة الرستمية (**160 –296هـ/777–909م**)[1] ،كالإمام **أفلح ابن عبد الوهاب(208–258هـ/ 854–872م)**[2]، **872م)**[2]، والإمام **يعقوب بن أفلح(ت310هـ/922م)** المتمكن في معرفة حركة النجوم، وقد روي عنه لما كان في طريقه إلى ورجلان أنّه نظر إلى الطالع ،فتنبأ بذهاب ملك بني رستم على يد بني عبيد، وأخبر قومه بذلك قائلا: "**لا يجتمع منكم اثنان إلاّ كان عليهم الطلب، افترقوا فقد انقضت أيامكم، وزال ملككم ولا يعود إلى يوم القيامة**"[3].

ولم تكن نساؤهم أقل تمكنا من رجالهم، فقد أشاد المؤرخون ببراعتهن[4]، يقول **الإمام عبد الوهاب (ت190هـ /806م)**:" **معاذا معاذا الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم أين يبيت القمر**"، ولعّل أشهرهن الأميرة الرّستمية أخت الإمام أفلح التي كانت تجادل أخاها في مسائل التنجيم، حتى قيل أنّها تفوقت عليه مرة في أمر بقرة التي كانت ستذبح في السوق، فأخبرها أفلح أن البقرة صفراء في بطنها عجل به غُرة على جبهته، فقالت له:" **صدقت هي بقرة صفراء وفي بطنها عجل، غير أن الذّي رأيته هو طول ذنبه الأبيض تعممّه على جبهته**"[5].

وتؤكد المصادر التاريخية أنّ المنجمين بلغوا من المكانة إلى درجة تصنيفهم ضمن الفئات المحسوبة على السلطة، حالهم حال الأطباء، مثل المنّجم **أبي الحسن علي بن أبي الرجال التيهرتي الشيباني (ت462هـ /1034م)** الذّي وجد لنفسه مكانة سواء في بلاط الفاطميين أو مع بني زيري (363 –521هـ/973–1127م) زمن المعز بن باديس[6]، خاصة في فترة الاضطرابات والحروب، ومثله **أبو عبد الله محمد بن يحي ابن النجّار(ت749هـ/1350 م)**[7] الذّي استخلصه السلطان الزياني أبي تاشفين لقضاء حاجاته[8].
حاجاته[8].

ويشير المؤرخ النويري (ت732هـ/1332م) في هذا الصدد إلى قبيلة صنهاجة وأميرها **مناد ابن منقوش الصنهاجي** الذي أتاه رجل إلى المسجد يزعم أنّه قادم من الحج وأنّ اللصوص قد أخذوا كل ماله، فذهب به إلى منزله وأطعمه من الشاة التي أمر بذبحها، فلما انتهى الرجل من طعامه نظر في كتف الشاة ثم أخبره قائلا:" **إن كانت لك زوجة حامل فاحتفظ بها، فإنها ستلد لك ولدًا يملك كل**

---

[1]– الشّماخي أحمد بن سعيد بن الواحد (ت 865هـ/1460م): السير، تح: أحمد بن سعود السيابي، ط2، وزراة التراث القومي و الثقافة، سلطنة عمان، 1992، ج1، ص142.

[2]– أبو زكرياء يحي بن أبي بكر (ت471هـ/ 1078م): سير الأئمة وأخبارهم، تح: اسماعيل العربي، ط2، صدار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 136،137.

[3]– نفس المصدر، ص189.

[4]– الشّماخي، المصدر السابق، ج1، ص142.

[5]– نفس المصدر: ص167.

[6]– ابن عذاري المراكشي(ت712هـ/1312م): البيان المعرب في أخبار الاندلس و المغرب، تح: ج س كولان وليفي بروفنسال، ط3،دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983،ج1، ص 273،274.

[7]– أبو عبد الله محمد بن يحي بن النّجار الإمام الفقيه نخبة وقته من أعيان المالكية بتلمسان ولد ونشأ بها وكانت لديه سيادة على أهل وقته في التعاليم والمعقولات، فلم يبخل بعلمه على خدمة أبي تاشفين، ولما استولى أبي الحسن على تلمسان ألزمه خدمته، ورافقه إلى إفريقية توفي بالطاعون الجارف مع جملة من أعيان المغرب سنة 749هـ/1350م وقيل أنّه تنبأ بوقت موته. ابن مرزوق التلمساني(ت781هـ /1379م): المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، ص 192.

[8]– ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت808هـ/1406م): التعريف بابن خلدون ورحلته غربا و شرقا، د ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1979،ص 48.

المغرب ويملك أولاده من بعده"[1]، وكان ذلك الطفل **زيري بن مناد** (**ت 360هـ/971م**) مؤسس دولة صنهاجة بالمغرب الأوسط وإفريقية[2].

ولا نغفل عند الحديث عن الكهانة أن نذكر "**الكاهنة داهيا**"[3]التي ذاع صيتها نتيجة شهرة تنبؤاتها زمن الفتوحات، ولعّل أبرزها عندما خرجت ناشرة شعرها تضرب على صدرها وتقول: "**يا بني أنظروا ما ترون في السماء، فقالوا: نرى شيعا من سحاب أحمرا، فقالت لهم: لا و إلهي إنمّا هو رهج خيل العرب أقبلت إليكم**"[4]تعلمهم بذلك بقدوم جيش القائد حسان بن النعمان، ثم تنبأت مرة أخرى قائلة لهم:" **إنّي مقتولة و أعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدي ملك العرب**"[5]كإشارة باقتراب نهايتها على يديه.

وفي ذات السياق تشير المصادر التاريخية إلى **عاصم بن جميل** زعيم قبيلة ورفجومة حوالي 140هـ /757م الذّي ادّعى النبوة، واتبع سبيل الكاهنة في التنبؤ بالغيب وصّدقه الكثير من الناس وانساقوا خلفه[6]، ومثله كاهن مدينة البطحاء –الواقعة بالطريق الكبرى المؤدية لتلمسان يدعى **سيدي سينا**، وكيف بالغ الناس في تقديسه وتعظيمه دون أن يقول أو يفعل أو يخترع لهم شيئا، بما فيهم السلطان الزياني الذي كان يخشاه نتيجة امتلاكه لكتب السحر[7].

يبدو أنّ الكهان في العصر الوسيط قد وجدوا وسيلة مجدية حتى يصدقهم النّاس، وذلك باستنادهم في تنبؤاتهم على موضوع اضطرابات المناخ التي ارتبطت في الذهنيات بعلامات الساعة و فناء العالم ، ففي سنة 582هـ/1186م أجمع الكهنة على خراب العالم في شعبان بالطوفان و الرّيح [8]، وفي ظّل غياب التعليل العلمي للكوارث الطبيعية فزعت السّاكنة خوفا لما سيحل بهم، وبلغ الأمر خطورته حين حين انساقت خلفهم النخب المثقفة التي صدّقت قراءة الكاهن الزناتي **موسى بن صالح من قبيلة "أوغمرت" أو "غمرت"** عن خراب تلمسان، وستبقى كذلك حتى يحرث أرضها حرّاث أسود بثور أسود أعور، وفعلا لما خربت تلمسان يد بني مرين لسنة 760هـ/ 1358م علّقوا على صدقه[9].

---

[1]– النويري عبد الوهاب شهاب الدين ابن أحمد(ت733هـ/1332): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: حسين نصار، د ط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1983، ج24، ص 87.

[2]– يظهر ميل قبائل صنهاجة للتصديق بخرافة التنبؤ، ولعّل جواب مناد للرجل خير دليل على ذلك:" والله مازلنا نتوقع زمان هذا القائم منا، وهي نبوءة سمعناها من أسلافنا". نفسه، ص 87.

[3]– هي داهيا بنت نيعان من قبيلة جرواة البربرية، كان لديها ثلاث إخوة استبدت بهم و أخذت الرياسة منهم بفضل ما كان لها من الكهانة و المعرفة بالغيب، وقيل أنّها ملكت عليهم خمسا و ثلاثين سنة و عاشت مائة و سبعا و عشرين سنة، أمّا عن بداية حكمها فقد قيل أنّ بربر المغرب الأوسط رجعوا إليها بعد قتل كسيلة و انضوى تحت سلطانها بنو يفرن و سائر قبائل الزناتة. ابن خلدون، العبر، ج7، ص 12،13.

[4]– ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص36.

[5]– ابن عبد الحكم ابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحم بن عبد الله (ت257هـ/870م): فتوح مصر والمغرب، تح: شارلز توري، د ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ت، ج2، ص201.

[6]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص150.

[7]– الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 28،29.

[8]– أجمعوا في هذا العام في جميع البلاد على خراب العالم (...) فشرع الناس في حفر المغارات ونقل الماء والزاد إليها وتهيأوا، فلّما كانت الليلة التي عيّنها هؤلاء، وتكلموا عن ريح عاد والناس جلوس والشموع توقد، فلّما تتحرك أبدا ولم يرى مثل ركودها". ابن العماد الحنبلي شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي ابن أحمد بن محمد العكري الدمشقي (ت1089هـ /1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1989، ص 449.

[9]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص 69.

والغريب أنّ الممتهنين لهذا النوع السحري كانوا أناسا متظاهرين بالصلاح وأحيانا نجدهم ممن ادعى الولاية أو النسب الشريف[1] ، منهم **محمد ابن تومرت**[2] الذّي ثبت عنه اطلاعه على المؤلفات السحرية أثناء إقامته في المشرق منها كتاب الجفر[3]، إضافةً إلى ابن خلدون الذّي قدّم نفسه شاهدا على تجليات الخرافة بالمغرب الإسلامي عامة، إذ أكد أنّه وقف على كل الصور السحرية الآنفة الذكر بأرض المغرب، بعدما صادف جماعة أظهرت أمامه الغرائب كالأسماء العجيبة و الطلسمات، فقال:" ... **وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مراء عجيبة، واطلعت على أمور كنت أتشوف عليها من أحوالي**"، بالمقابل وضّح أنّ قدرته على الاستعداد لتقبل هذه الخوارق فشلت أمام التمكن الفعلي منها[4].

د- عقيدة المسخ

يعتبر المسخ من ثوابت المعتقدات القديمة، ويعنى به تحويل صورة الكائن البشري إلى القبيح، فيصير مشوه الخلقة لا ملامح له، وقد ترسخت هذه الخرافة في ذهنية القدماء وصدّقوا بإمكانية تحول الإنسان إلى جماد أو حيوان، وعبّروا عنها من خلال كتاباتهم التي أخذت الطابع الأسطوري الخرافي مثل رواية الحمار الذهبي للروائي لوكيوس أبوليوس[5] و هي أول نص روائي في تاريخ البشرية، عالج فيها المؤلف فكرة المسخ و كيفية تحول الكائن البشري إلى حيوان حين تحول فيها البطل لوكيوس إلى حمار بسبب خطأ إجراء الطقوس السحرية[6]، السحرية[6]، ويبدو أن مؤثرات هذه الرواية قد استمرت بالمغرب الأوسط، إذ يشير الوزان إلى أهل قسنطينة الذين يعتقدون بالمسخ في إطار العقوبات الإلهية بسبب خطايا المسلمين ككثرة الظلم وانتشار الفسق[7].

5. خاتمة:

بيّنت هذه الإطلالة المركزة على دور الموروث الديني الوثني القديم في تغلغل التفكير الخرافة في ذهنية مجتمع المغرب الأوسط النقاط التالية:

أن الخرافة بدأت منذ بدء الخليقة وتطورت تدريجيا في الذاكرة الشعبية مع تقادم الزمن، وتمركزت على مستويين الأول هو الاعتقاد، وتمثل الثاني في الممارسة وتطبيق الطقوس، وبعد انتشار الإسلام في المغرب الأوسط حاولت التسرب إلى مصادره لتحقيق رسوخها في العقل البشري، حيث استفادت من الموروث الديني الوثني القديم وأعادت تكوين مادتها في ظل كثرة الأزمات التي واجهت المجتمع.

---

[1]- الناصري، المصدر السابق، ج4، ص 164 ،163.

[2]- محمد ابن تومرت: أعز ما يطلب، تحقيق: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1997م، ص 21.

[3]- هو كتاب زعمت الشيعة أنه من علوم أهل البيت ونسبته للصحابي علي ابن ابي طالب رضي الله عنه دون فيه الأحداث قبل وقوعها، وسمي علم الجفر يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم، وتنسب إلى هذا الكتاب خرافة تداولها الناس بأن الجفر هو كلام أخذ من ألواح النبي موسى عليه السلام فاستودعه في جبل إلى زمان الرسول صلى الله عليه و سلم الذي دعا بعد ذلك عليا رضي الله عنه و أعطاه إياه و أمره أن يضعه تحت رأسه، فأصبح وقد علمة الله بعد ذلك كل شيء. مجهول: جفر الجامع والنور اللاّمع، تحقيق: حسن البري، مكتبة فارس حسن الساعدي، البحرين، م1870، ص 16.

[4]- ابن خلدون، العبر، ج1، ص 132.

[5]- أحد أشهر كتاب القرن الثاني الميلادي، ولد في مداوروش (الجزائر حاليا) سنة 125م، زاول تعليمه بمدينة قرطاج وأثينا ثم اشتغل محاميا بروما، بعدها عاد إلى إفريقية ثم استقر بها، له عدة مقالات وخطب تحت اسم " المنتخبات" إضافة إلى كتبه المتنوعة في عدة علوم منها الفلسفة "أفلاطون وفلسفته" "في إله سقراط" "في الكون" "الحمار الذهبي" التي يرجح أنه كتبها بعد 170ميلادي. لوكيوس أبوليوس: الحمار الذهبي "التحولات، تر: عمّار الجلاصي، دار الكلام، الرباط، م2000، ص 4،5.

[6]- نفس المصدر، ص 304.

[7]- الوزان، المصدر السابق، ج2، ص59.

تجاوزت الخرافة الدّين الإسلامي الدّاعي لاستخدام العقل ودحض كل تصور غير موضوعي، وأجهضت محاولات الاجتهاد العقلي للأشخاص المؤمنين بها، من خلال إيمانهم ببعض الاعتقادات والممارسات التي تجلب الخير وتدرأ الشر، فغيّبت قدرتهم على رؤية حقيقة ما حولهم وفق المنطق العقلي الموضوعي.

عزّز الموروث الديني الوثني المحلي وظيفة الخرافة – تربوية أو دينية – من خلال تشجيع المتلقي على العودة إلى معتقداته القديمة مثل الإيمان بقوة عناصر الطبيعة، والتبرك بالأشخاص، وكذا التردد على السحر وفروعه المتنوعة كالكهانة والتنجيم والشعوذة وغيرها.

ختاماً لابد من التنبيه أنّ هناك العديد من الأسباب التي دفعت بمجتمع المغرب الأوسط إلى تقبل الخرافات، منها الظروف الصعبة التي فُرِضت عليه باعتباره المتلقي الأول لتداعيات الاضطراب الطبيعي كالكوارث الطبيعية والسياسي كالحروب والفتن، وغيرها من التحديات التي لم تتماشى وقدرته على تحكيم العقل.

6. قائمة المراجع:

القرآن الكريم

المصادر:

1. البكري أبو عبيد الله (ت 487هـ/1094م): المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، دار الإسلامي، القاهرة، د ت ن.
2. البغدادي الآلوسي أبي الفضل شهاب الدين بن محمود (ت127هـ/744م): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.
3. الترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى(ت679هـ/1280م): الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تح: سيد بن عباس الجليمي، المكتبة التجارية، د ر ط، مكة المكرمة، 1993، ص 208.
4. ابن تومرت محمد: أعز ما يطلب، تحقيق: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1997م.
5. الجوهري اسماعيل بن حماد(ت391هـ/1002م): الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور العطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ج4.
6. ابن الحاج محمد بن محمد المالكي (ت737هـ/1336م): المدخل، مكتبة دار التراث، دم، د ت، ج2.
7. ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني(ت852هـ/1448م): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تح: عبد العزيز ابن باز، د.ط، المكتبة السلفية، السعودية، د ت.
8. ابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحم بن عبد الله (ت257هـ/870م): فتوح مصر والمغرب، تح: شارلز توري، د ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ت، ج2.
9. الحميري محمد عبد المنعم (ت900هـ /1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت،1989.
10. ابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ/1406م):"العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، تحقيق: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001م، سبعة أجزاء.
11. : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا و شرقا، د ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1979.
12. أبو زكرياء يحي بن أبي بكر (ت471هـ/ 1078م): سير الأئمة وأخبارهم، تح: اسماعيل العربي، ط2، صدار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.
13. ابن سعيد المغربي (ت 565هـ/1286م): كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
14. ابن سينا أبي علي الحسين بن عبد الله (ت427هـ/1037م): تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، ط2، دار العرب للبستاني، القاهرة، د ت.
15. السيوطي عبد الرحمن ابن أبوبكر (ت911هـ/ 1505م): الدّر المنثور، دار الفكر، بيروت، ج8.
16. الشّماخي أحمد بن سعيد بن الواحد (ت 865هـ/1460م): السير، تح: أحمد بن سعود السيابي، ط2، وزراة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1992، ج1.

17. ابن صعد محمد الأنصاري التلمساني ت 901هـ/1496م: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تح: يحي بوعزيز، ط1، منشورات أناب، الأبيار، الجزائر، 1994.
18. ابن عذاري المراكشي(ت712هـ/1312م): البيان المعرب في أخبار الاندلس والمغرب، تح: ج س كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ج1.
19. ابن عماد الحنبلي شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي الدمشقي (ت1089هـ /1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1989.
20. الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت175هـ/791م): كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، د ر ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج4.
21. الفيروز آبادي مجد الدين بن يعقوب(817هـ/1414م): القاموس المحيط، تح: نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت،2005م.
22. القرطبي محمد ابن أحمد بن أبو بكر الخزرجي(ت671هـ/1272م): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م، ج18.
23. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي(ت821هـ/1355م): قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: ابراهيم الابياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1982.
24. ابن قنفذ أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني(ت810هـ/1408م): أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، د ط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م.
25. ابن كثير عماد الدين أبو الفداء الدمشقي(ت774هـ/1372م): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، بيروت، 1999م، ج1.
26. لوكيوس أبوليوس: الحمار الذهبي "التحولات، ترجمة: عمّار الجلاصي، دار الكلام، الرباط، 2000م.
27. مجهول: جفر الجامع والنور اللاّمع، تحقيق: حسن البري، مكتبة فارس الساعدي، البحرين، 1870م.
28. مجهول: مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب، 2005م.
29. ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني(ت781هـ/1379م): المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008م.
30. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم أبي الفضل الإفريقي المصري(ت711هـ/1311م): لسان العرب، ط1، دار الصادر، بيروت، د.ت، ج9.
31. النويري عبد الوهاب شهاب الدين ابن أحمد(ت733هـ/1332): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، د ط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1983، ج24.
32. هيرودوت: أحاديث هيرودوت عن اللبيين، تر: مصطفى أعشي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009م.
33. الوزان حسن ابن محمد الفاسي (ت 944هـ/ 1537م): وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج1.
34. الونشريسي أبو العباس أحمد يحي (ت 914هـ / 1508م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، 1981م، ج11، ص ص150،151.

- **المراجع:**

1. باصي روني: أبحاث في دين الأمازيغ، تح: حمو بوشخار، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2012.
2. بدران إبراهيم وخماش سلوى: الخرافة دراسات في العقلية العربية، ط3، دار الحقيقة، بيروت، 1988.
3. بدوي أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (انجليزي – فرنسي– عربي): ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1987.
4. حريري محمد زهير: السحر بين الحقيقة والخيال، ط1، دار الإيمان، دمشق، 1985.
5. دوتي إدموند: السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة: فريد زاهي، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2018.

6. عبد الكريم خليل: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، دار سينا للنشر، القاهرة، 1990.
7. عيسوي عبد الرحمان: سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي، ط1، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2006.
8. فريد سيجموند: الطوطم والطابو، ترجمة: أبو علي ياسين، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1983م.
9. قسم البحوث والدراسات: الأسطورة توثيق حضاري، جمعية التجديد الثقافية، دار كيوان، دمشق، سورية، 2009.
10. كايد هاني: ميثولوجيا الخرافة والأسطورة في علم الاجتماع، دار الرواية، عمان، 2010.
11. لالاند أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، تع، خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ج1.
12. لومبار موريس: الإسلام في مجده الأول، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، الإسكندرية، 1990.

- **الرسائل والأطروحات الجامعية:**

1.بوخنوف شهيرة: "أساطير وطقوس الاستسقاء واستقبال الربيع في منطقة خراطة –بجاية "مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2012، ص 132.
2. بوعزم عبد القادر: "عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2012.ص194
3.بوعصبانة عمر سليمان: "معالم الحضارة الإسلامية بورجلان (296-626هـ/909-1229م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، 1992، ص 30.
4.بونابي الطاهر:" الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين"، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2009م.
5. خلفة عبد الرحمان: "الديانة الوثنية المغاربية القديمة منذ النشأة إلى سقوط قرطاجة 146ق م"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008، ص 29.
6.دهمش سهيلة:" العادات الاحتفالية (مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي للمغرب الأوسط الزياني (633-962هـ /1235-1555م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، 2015، ص 63.
7.العظيمي ناصر سلام: "الأساطير والخرافات في كتابات الرحالة العرب المسلمين والمشارقة (132-656هـ /750-1258م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، تخصص التاريخ الإسلامي، جامعة واسط، العراق، 2017م، ص195
8. ابن عتو ابن عون:" الجذور التاريخية لظاهرة التبرك بالأولياء في المجتمع الجزائري، مذكرة مكلمة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2002م.
9. عمروش حسيبة: "انعكاسات الحروب في السلوك والذهنيات لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني (633 -962هـ/1235-1555م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 1440هـ/2018م، ص 216.

- **المقالات:**

1. الصغير محمد غانم:" المقبرة الميجاليتية بونوارة في الشرق الجزائري"، مجلة العلوم الإنسانية، ع15، 2011م.
2. عدنان أسامة يحي:" علاقة السحر بالطب في الحضارات القديمة" مجلة كان التاريخية، ع12، 2011.
3. عولمي الربيع: "ملامح الفكر الديني الوثني وطقوسه في بلاد المغرب القديم"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع13، جوان2018م.